

ختم النبوة بمحمد – صلى الله عليه وسلم عند ابن كثير

إعداد الباحث

محمد على أحمد قنديل

بحث مقدم لمجلة كلية البنات جامعة عين شمس

والذي يعد لمناقشة رسالة الدكتوراه المقدمة لنيل الدرجة

بكلية البنات جامعة عين شمس

مقدمة

لقد اتفقت آراء علماء الأمة من المتكلمين وغيرهم على أن سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - أفضل الأنبياء والمرسلين ، وهو خاتمهم جميعاً .¹¹³ وابن تيمية¹¹⁴ يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم - أفضل من الأنبياء ، ومن الملائكة ، ومن سائر الخلق فيما يحققه من قول السلف عن عبد الله بن سلام¹¹⁵ أنه قال : ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من محمد قيل له : ولا جبريل ، ولا ميكائيل ، قال : أتدري ما جبريل ، وميكائيل ؟ إنما جبريل ، وميكائيل خلق مسخر كالشمس ، والقمر ، وما خلق الله خلقاً أكرم عليه من محمد - صلى الله عليه وسلم -¹¹⁶ . وكون سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتم النبيين وأفضل المرسلين مسألة من مسائل علم العقيدة . وهذه الدراسة محاولة لربط التفسير بالعقيدة من خلال بحث هذه النقطة من تفسير ابن كثير وذلك ؛ لأن علم التفسير من أهم العلوم في حقل الدراسات الإسلامية ، فإذا ربط هذا العلم بعلم العقيدة سوف يصل الباحثون إلى دراسات تظهر توجهات المفسرين وعقائدهم من خلال تفاسيرهم على مر عصور التفسير من بداية التفسير المأثور الذي بين لنا أول المفسرين للقرآن الكريم وهو النبي المعصوم - صلى الله عليه وسلم - إلى هذا العصر .

أسباب اختيار هذا الموضوع

⁽¹⁾ انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ج4 (مجلد مفصل الاعتقاد) ص194 ، وانظر تفسير القرطبي ج14 / 302 في تفسيره لقوله تعالى : " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ " (سورة الأنبياء الآية 107) قال : إن النبي أرسل رحمة للملائكة ؛ لأنهم من العالمين . وانظر تفسير الرازي ج6 / 210 ، 211 في تفسيره لقوله تعالى : " تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ " سورة البقرة من الآية (253) ، و انظر تفسير الكشاف للزمخشري ج1 / 477 ، 478 ، و انظر خاتم النبيين - صلى الله عليه وسلم - تأليف محمد أبو زهرة ج1 / 11 : 13 . أقر بأن النبي أفضل من الملائكة .

⁽²⁾ هو : شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحارثي ولد في عاشر ربيع الأول يوم الاثنين سنة إحدى وستين وستمائة بجران . سمع من ابن عبد الدايم ، وابن أبي اليسر ، وعدة . ويرع في التفسير ، والحديث ، والاختلاف ، وكان يتوقد نكاه ، ومصنفاته أكثر من مائتي مجلد . وله مسائل غريبة نول من عرضه لأجلها . وكان رأساً في الكرم والشجاعة ، قلماً باليسير ، مات في قلعة دمشق ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة لسنة ثمان وعشرين ومبعمائة معقلاً . ومنع قبل وفاته بخمسة أشهر من الدواة والورق . شيعه نحو من خمسين ألفاً ، وحمل على الرؤوس رحمه الله .

انظر ترجمته في : العبر في خبر من غير للذهبي ج4 / 84 .

⁽³⁾ هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي أبو يوسف . أسلم عند قنوم النبي المدينة . قيل كان اسمه حصين فسماه النبي عبد الله ، وشهد له بالجنة . شهد مع عمر فتح بيت المقدس . مات سنة ثلاث وأربعين .

انظر ترجمته في تهذيب التهذيب ج3 / 163 .

⁽⁴⁾ انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ج4 / 219 ، (مجلد مفصل الاعتقاد) .

1- الأهمية القصوى لإثبات أفضلية النبي وكونه خاتم النبيين عند المسلمين .

2- بحث هذه المسألة وهي من مسائل العقيدة من أحد التفاسير المأثورة يبين عقيدة السلف الصحيحة من خلال الأحاديث النبوية والآثار المروية عن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين .

3 - الوقوف على تفسير ابن كثير في هذه المسألة يظهر مدى اتباعه لعقيدة السلف ، وهو من أهم علماء التفسير بالمأثور .

خطة الدراسة :

جاء هذا البحث في مقدمة وثلاث مطالب وخاتمة بعدها أدرجت قائمة المصادر والمراجع

المقدمة : وفيها الحديث عن أسباب اختيار الموضوع وخطة الدراسة .

المطلب الأول : مناقب الإمام ابن كثير .

المطلب الثاني : ما جاء عند ابن كثير عن أفضلية النبي .

المطلب الثالث : بيان ابن كثير أن رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين .

الخاتمة .

قائمة المصادر والمراجع .

المطلب الأول : مناقب الإمام ابن كثير :

— نعيه :

هو : " الإمام المحدث الحافظ ذو الفضائل عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء ابن كثير القيسي البصري. " ¹¹⁷

— مولده ، نشأته ، وتعلمه :

ولد سنة سبعمائة أو بعدها بيسير بمجدل قرية من مدينة البصرة في العراق ومات أبوه سنة 703 هـ . ¹¹⁸ نشأ بدمشق حيث قدمها وهو ابن سبع سنين مع أخيه بعد موت أبيه ، وحفظ أحاديث مختصر ابن الحاجب (تاريخ ابن الحاجب) ، وتفقه بالبرهان الفزاري ¹¹⁹ ، وقرأ في الأصول على الأصبهاني ¹²⁰ وألف في صغره أحكام التنبيه وكان كثير الاستحضار قليل النسيان جيد الفهم يشارك في العربية وينظم نظماً وسطاً قال الذهبي عنه : الإمام المحدث المفتي البارع، وصف بحفظ المتون وكثرة الاستحضار ، وسمع من ابن الشحنة وابن الزراد وإسحاق الأمدي وابن عساكر والمزي وتزوج بابنته وسمع عليه أكثر تصانيفه ، وابن الرضي وطائفة وأجاز له من مصر الدبوسي والواني والخنتي وغيرهم ، وأخذ عن الشيخ تقي الدين بن تيمية فأكثر . ¹²¹ ويظهر من ذلك كثرة شيوخ ابن كثير مما يدل على كثرة تلقيه للعلم . وحفظه للمتون وكثرة استحضاره يدل على تفوقه العلمي . وهو ما شهد له به أهل عصره .

¹ (طبقات الحفاظ للسيوطي ص 534 .

² (انظر الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ، دار الجليل بيروت لبنان ط 1414 هـ 1993 م ج 1/ 374

³ (هو : إبراهيم بن سليمان بن سالم البرهان الفزاري ، وصف بالخير . مات قبل الثمانين وسبعمائة ، أو بعدها .

انظر ترجمته في الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت — لبنان ج 1/ 53 .

⁴ (هو : محمود بن عبد الرحمن أبي القاسم ابن أحمد بن محمد، أبو الشتاء، شمس الدين الاصفهاني، أو الاصبهاني: مفسر، كان عالماً بالعقليات ولد وتعلم في أصفهان. ورحل إلى دمشق فأكرمه أهلها، وأعجب به ابن تيمية. وانتقل إلى القاهرة وبقي بها إلى أن مات فيها مصاباً بالطاعون سنة سبعمائة وتسعة وأربعين . له كتب في التفسير ، وأصول الفقه .

انظر ترجمته في : الأعلام للزركلي ج 7/ 176 .

⁵ (انظر الدرر الكامنة مرجع سابق ج 1/ 374، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ج 8/ 397 ، 398 .

— علمه ، وتقريظ العلماء له ، ومؤلفاته :

قال ابن العماد الحنبلي في الشذرات عن ابن كثير : هو إمام روى التسييح والتهليل وزعيم أرباب التأويل سمع وجمع وصنف وأطرب الأسماع بالفتوى ، وحدث وأفاد وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير. فألف في التفسير تفسير القرآن العظيم ، وألف في التاريخ كتابه المشهور البداية والنهاية ، وفي الحديث تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب . وشرع في كتاب كبير في الأحكام لم يتمه ، ورتب مسند أحمد على الحروف وضم إليه زوائد الطبراني وأبي يعلى ، وله مسند الشيخين ، وعلوم الحديث ، وطبقات الشافعية ¹²² ويظهر من هذا كثرة مؤلفات ابن كثير والحقيقة أن هناك ظاهرة في مؤلفات ابن كثير تدل على تدفقه العلمي وغازاته ، فإنك إذا طالعت مؤلفاته تجدها مشحونة بذكر الأحاديث وكذا الآراء الفقهية ، ففي البداية والنهاية أحاديث وآثار لا حصر لها مع أنه كتاب تاريخ ، وهذه ميزة يتميز بها كتابه هذا ؛ لأنه يعد من المراجع المهمة في التاريخ الإسلامي المشفع بالأدلة من السنة وآثار الصحابة والتابعين ، وكذا تجد في تفسيره إدراجاً لمسائل فقهية كثيرة ، هذا إلى جانب تنويع التفسير بأحاديث جمّة ؛ وذلك لأنه تفسير بالمأثور . وإن المسائل الفقهية التي تخللت تفسير ابن كثير تبين أنه فقيه عالم بالفقه وأصوله . ولذا قيل عنه: هو الإمام المفتي المحدث البارع ثقة متقن محدث متقن ، كان كثير الاستحضار وسارت تصانيفه في البلاد في حياته وانتفع به الناس بعد وفاته . وامتاز ابن كثير بكثرة تلاميذه ومنهم ابن حجي ¹²³ الذي قال عنه : أحفظ من أركانها لمتون الأحاديث وأعرفهم بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك وما أعرف أنني اجتمعت به على كثرة ترددي إليه إلا واستفدت منه ¹²⁴

⁽¹⁾ انظر طبقات الحفاظ للسيوطي من 534 ، وشذرات الذهب ج 8/ 398 .

⁽²⁾ هو : أحمد بن حجي بن موسى بن أحمد السعدي الحنبلي الأصل، النمشقي . حافظ مؤرخ، من أهل دمشق، ولد ومات فيها. ولد في ليلة الأحد رابع المحرم سنة إحدى وخمسين وسبعمائة بظاهر دمشق ونشأ فحفظ القرآن ، وتلقاه بآبيه ولازمه . انتهت إليه مشيخة قشيوخ في البلاد الشامية. ويلقب بمؤرخ الإسلام. صنف كتباً جليلة، منها " الدارس من أخبار المدارس " احترق غالبه في وقعة التتر، و " معجم " في أسماء شيوخه. توفي سنة ست عشرة وثمانمائة من الهجرة .

انظر ترجمته في الضوء اللامع للسفاوي ج 1/ 270 : 272 .

⁽³⁾ انظر الدرر الكامنة لابن حجر ج 1/ 374 ، وشذرات الذهب ج 8/ 399 .

- وفاته :

توفي في شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة وكان قد أضر في أواخر عمره. ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية ¹²⁵.

المطلب الثاني : أفضلية النبي صلى الله عليه وسلم :

تحدث ابن كثير عن أفضلية النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه أفضل الأنبياء والمرسلين في تفسيره لآيات كثيرة من القرآن الكريم ، وتحدث عن كونه خاتم المرسلين في آية واحدة وهي قوله تعالى : " وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا " ¹²⁶ . والتي سوف تكون موضع دراسة في هذا البحث .

أولا : تفسير قوله تعالى : " تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ " ¹²⁷

قال في تفسير هذا الجزء من الآية : " يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض كما قال : " وَكَفَّزْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا " ¹²⁸ وقال هاهنا : " تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ " يعني: موسى ومحمدا صلى الله عليه وسلم وكذلك آدم، كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي زر رضي الله عنه " وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ " كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي صلى الله عليه وسلم الأنبياء في السموات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل. فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت في الصحيحين عن أبي هريرة " قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال اليهودي في قسم يقسمه: لا والذي اصطفى موسى على العالمين. فرفع المسلم يده فطم بها وجه اليهودي فقال: أي خبيث وعلى محمد صلى الله عليه وسلم! فجاء اليهودي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتكى على المسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تفضلوني على الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشا

⁽⁴⁾ انظر الدرر الكامنة ج/1/ 374 ، وطبقات الحفاظ ص534 ، وشذرات الذهب ج/8/ 399 .

⁽¹⁾ سورة الأحزاب من الآية (40) .

⁽²⁾ سورة البقرة من الآية (253) .

⁽³⁾ سورة الإسراء من الآية (55) .

بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟ فلا تفضلوني على الأنبياء" ¹²⁹ وفي رواية: "لا تفضلوا بين الأنبياء".

فالجواب من وجوه:

أحدهما: أن هذا كان قبل أن يعلم بالترتيب وفي هذا نظر.

الثاني: أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع.

الثالث: أن هذا نهى عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر.

الرابع: لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية.

الخامس: ليس مقام التفضيل إليكم وإنما هو إلى الله عز وجل وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به. ¹³⁰

هكذا يقرر ابن كثير حقيقة التفضيل بين الأنبياء ، لكن التفضيل ليس أمره ، و مرده إلى الأمة ، وإنما هو لله عز وجل ؛ لأن الله هو الذي فضل بين الأنبياء ، وهو وحده الذي يعرف قدر كل نبي — عليهم السلام أجمعين — لذا قاله هو الذي فضل وهو الذي قال : " تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ " ولقد وفق ابن كثير بين الآية السابقة والحديث الذي نهي فيه النبي رجلا من المسلمين عن تفضيله — صلى الله عليه وسلم — على موسى ، وذلك تواضعا من النبي من جهة ، وإظهارا لمناقب الأنبياء السابقين من جهة أخرى ؛ حتى لا يكون التفضيل عن هوى وعصبية . وابن كثير في تفسيره لهذه الآية يضع أول نقطة في تفضيل النبي على سائر الأنبياء

¹²⁹ الحديث متفق عليه في الصحيحين أخرجه البخاري في كتاب التفسير سورة الأعراف باب (إِمَّا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) ج 3 / 225 ، ومسلم في صحيحه بشرح النووي في كتاب الفضائل باب فضائل موسى عليه السلام ج 15 / 485 واللفظ شبيه باللفظ مسلم فإن اللفظ مسلم هو " حَتَّيْنِي زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ وَلَهُ بَكْرُ بْنُ التَّضَنِّ قَالَ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ إِسْرَاهِيمَ حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ الْأَعْرَجُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : اسْتَبْرَأَ رَجُلَانِ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ وَرَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ الْمُسْلِمُ وَالَّذِي اسْتَطَلَّيْتُ مُحَنَّدًا -صلى الله عليه وسلم- عَلَى الْعَالَمِينَ. وَقَالَ الْيَهُودِيُّ وَالَّذِي اسْتَطَلَّيْتُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْعَالَمِينَ. قَالَ فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عَنِ ذَلِكَ فَلَطَمَ وَجْهَ الْيَهُودِيِّ لَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمَرَ الْمُسْلِمُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « لَا تَخْتَرُونِي عَلَى مُوسَى فَإِنَّ النَّاسَ يَصْنَعُونَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَلْقَى فَيَذَرُ مُوسَى بَاطِلًا بِجَانِبِ الْعَرْشِ فَلَا أَدْرِي أَكُنَ لِيَمِينُ صَنِيعٍ فَأَلْفَاقُ قَبْلِي أَمْ كُنَ لِمَنْ اسْتَشْنَى اللَّهُ ».

¹³⁰ (تفسير ابن كثير ج 1 / 305 .

؛ لأن الله ذكر تفضيله لبعض الرسل على بعض ، وسوف يأتي إظهار تفضيل النبي على سائر الأنبياء بوضوح في موضعه من هذا البحث .

وقال الرازي عن تفضيل النبي على سائر الأنبياء في هذه الآية : " أجمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض ، وعلى أن محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل من الكل ، ويدل عليه وجوه أحدها : قوله تعالى : " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ " ¹³¹ فلما كان رحمة لكل العالمين لزم أن يكون أفضل من كل العالمين .

الحجة الثانية : قوله تعالى : " وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ " ¹³² ف قيل فيه لأنه قرن ذكر محمد بذكره في كلمة الشهادة وفي الأذان ، وفي التشهد ، ولم يكن ذكر سائر الأنبياء كذلك .

الحجة الثالثة : أنه تعالى قرن طاعته بطاعته ، فقال : " مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ " ¹³³ وبيعته ببيعته فقال : " إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ " ¹³⁴ وعزته بعزته فقال : " وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ " ¹³⁵ ورضاه برضاه فقال : " وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ " ¹³⁶ وإجابته بإجابته فقال : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ " . ¹³⁷

هذا هو رأي الرازي في تفضيل النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن . وهو أمر أجمعت عليه الأمة . كذلك لم يختلف ابن كثير عن الزمخشري ، والرازي في إظهار أفضلية النبي على سائر الأنبياء والمرسلين فذكر الزمخشري أفضليته — صلى الله عليه وسلم — في تفسيره لهذه الآية ¹³⁸ ، وهذا يدل على اتفاق المفسرين على أفضلية نبينا — صلى الله عليه وسلم — على سائر النبيين والمرسلين — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إلى يوم الدين — .

⁽²⁾ سورة الأنبياء الآية (107) .

⁽³⁾ سورة الشرح الآية (4) .

⁽⁴⁾ سورة النساء من الآية (80) .

⁽⁵⁾ سورة الفتح من الآية (10) .

⁽⁶⁾ سورة المنافقون من الآية (8) .

⁽⁷⁾ سورة التوبة من الآية (62) .

⁽⁸⁾ تفسير الرازي ج 6 / 210 ، 211 ، والآية سورة الأنفال من الآية (24) .

⁽⁹⁾ انظر تفسير الكشاف للزمخشري ج 1 / 477 ، 478 .

ثانياً: تفسير قوله تعالى : " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَكَوْنُ أَتَمُّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا " ¹³⁹

قال في تفسير قوله تعالى : " وَكَوْنُ أَتَمُّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا " يرشد تعالى العصاة، والمذنبين ، إذا وقع منهم الخطأ والعصيان ، أن يأتوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيستغفروا الله عنده، ويسألوه أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم، ولهذا قال: " لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا " .

وقد ذكر جماعة منهم: الشيخ أبو نصر بن الصباغ ¹⁴⁰ في كتابه "الشامل" الحكاية المشهورة عن العتبي، قال: كنت جالسا عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: " وَكَوْنُ أَتَمُّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا " وقد جئتكم مستغفرا لذنبي مستشفعا بك إلى ربي ...

ثم انصرف الأعرابي فقلبتني عيني، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال: يا عتبي، الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له . ¹⁴¹

وهذا يدل على فضل النبي صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد مماته ؛ ولقد أراد كثير من علماء السلفية المعاصرين أن يطعنوا في صحة هذه الرواية من جهة ، ويمنعوا الأخذ بها من جهة أخرى ؛ لأن الأحكام الشرعية لا تؤخذ من الروي ، والحقيقة أن رؤية النبي ثابتة بالحدليل الشرعي فقد أخرج الشيخان من حديث أنس رضي الله عنه قال : " قال النبي صلى الله عليه و

¹ (سورة النساء الآية (64) .

² (هو: أبو نصر بن الصباغ، الفقيه عبد الميّد بن محمد بن عبد الواحد البغدادي الشافعي، أحد الأئمة، ومؤلف " الشامل " كان نظيراً للشيخ أبي إسحاق ومنهم من يقدمه على أبي إسحاق في نقل المذهب وكان ثباتاً حجة ديناً خيراً، ولي التنظيمية بعد أبي إسحاق، ثم كفّ بصره. وروى عن محمد بن الحسين القطّان، وأبي علي بن شاذان، وكان مولده في سنة أربصقة، توفي في جمادى الأولى لسنة أربصقة وسبع وسبعين ، ببغداد، ودفن في داره.

انظر ترجمته في : طبقات الشافعية الكبرى للمبكي ج/4 ، 188 ، 189 ، وسير أعلام النبلاء ج/18 ، 22 ، 23 .

³ (تفسير ابن كثير ج1 / 520 ، 521 .

سلم من رأيي في المنام فقد رأيي فإن الشيطان لا يتخيل بي ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة" ¹⁴² وهذا دليل على ثبوت رؤية النبي

وصحتها ، وطالما أن العتبي ¹⁴³ رأى النبي فهو صادق فيما أخبر به — وقد ثبت في ترجمته بالحاشية أنه رجل عالم عابد فقيه من أهل الخير والجهاد — فرجل جليل كهذا لا يكذب على النبي ، وهو يعلم أنه من كذب على النبي متممداً فليتبوأ مقعده من النار ، هذا من جهة صدق الرواية .

أما من حيث أن الأحكام الشرعية لا تؤخذ من الروى فشفاعة النبي ثابتة بالأحاديث الصحيحة ، ولا تحتاج إلى دليل شرعي من هذه الرؤيا . وإذا كانت الشفاعة ثابتة بالأحاديث الصحيحة في يوم الموقف العظيم — يوم القيامة — وثبت بالأدلة الشرعية التي لا تحصى قبول دعاء النبي عند الله وعدم رده عليه ، فلا فرق في ذلك بين دعاء النبي لنا في حياته أو بعد مماته ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم له خصوصيات غيبية لا نعلمها ، ومنها هذه الواقعة . كذلك ثبت في كتب أهل السنة أن "أرواح المؤمنين وإن كانت في الجنة فلها اتصال بالبدن إذا شاء الله تعالى من غير زمن طويل كما تنزل الملائكة في طرفه عين قال مالك رحمة الله تعالى : بلغني أن الروح مرسله تذهب حيث شاعت ولهذا روى أنها على أفنية القبور وأنها في الجنة والجميع حق وفي الصحاح أنها ترد إليه بعد الموت ويسأل وترد فتكون متصلة بالبدن بلا ريب والله أعلم وقد استفاضت الأخبار بمعرفة الميت بحال أهله وأصحابه في الدنيا وأن ذلك يعرض عليه وأنه يرى ويدري بما يفعل عنده ويسر بما كان حسناً ويتألم بما كان قبيحاً وروي أن عائشة رضي الله عنها بعد أن دفن عمر رضي الله عنه كانت تستتر وتقول كان أبي وزوجي فأما عمر فأجنيبي

⁴ (الحديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التعبير باب من رأى النبي — صلى الله عليه وسلم في المنام ج 4 / 348 ، ومسلم في صحيحه بشرح النووي في كتاب الرؤيا باب من رأيي في المنام ... ج 15 / 403 واللفظ للبخاري .

¹ (هو : محمد العتبي بن أحمد بن عبد العزيز بن عتبة بن جميل بن عتبة بن أبي سفيان سمع بالأندلس من يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان وغيرهما ورجل فسمع من سحنون وأصيف . كان حافظاً للمسائل جامعاً لها عالماً بالتنازل . كان بن لبابة يقول : لم يكن هنا أحد يتكلم مع العتبي في الفقه ولا كان بعده أحد يفهم إلا من تطم عنه . روى محمد بن لبابة عنه وأبو صالح وسعيد بن معاذ والأعقابي وطبقتهم . وقال الصديقي : كان من أهل الخير والجهاد والمذاهب الحسنة وكان لا يزول بعد صلاة الصبح من مصلاه إلى طلوع الشمس ويصلي الضحى .

تعني أنه يراها " ¹⁴⁴ فإذا كان هذا حال المؤمنين الذين نالوا هذه الدرجة لإتباعهم لنهج النبي — صلى الله عليه وسلم — فما بالناس بصاحب الدعوة نفسه ؛ فإننا لن نستطيع أن نصل لما أعطاه الله — سبحانه — بعد انتقاله إليه ؛ لأن هذا من الغيبات التي وصلنا عنها أشياء قليلة كهذا الخبر الذي ذكر في الفقرة السابقة . وإن تكذيب مثل هذه الروايات التي لا بد وأن تصدق بالقلب ، ولا يعمل العقل فيها ؛ لأن العقل قاصر عن إدراك مثل هذه الغيبات إنما يدل على نقص الإيمان بالله . فانه قادر على كل شيء ، وإخراج سماع النبي لكلام الأعرابي في قبره عن قدرة الله ضعف في العقيدة ؛ لأن الله هو الذي أسمع نبيه كلام الأعرابي بقدرته ، وهو الذي أنزل للنبي أن يستغفر للأعرابي وهو في قبره ، ولو لم يأذن الله للنبي بذلك لما استغفر للأعرابي . والله سبحانه يقول : " وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَالْمَيُتُّونَ إِنَّ اللَّهَ بِصُنُوعِهِ لَعَلِيمٌ " ¹⁴⁵ وفي الآية دليل واضح بلا شك ولا ريب أن إسماع من في القبور إنما هو من قدرة الله ، وإرادته ولقد قال الرازي في تفسير هذه الآية : " ثم قال تعالى : " إِنَّ اللَّهَ يُصَنِّعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُفْعِلٍ مِنْ فِي الْقُبُورِ " وفيه احتمال معنيين الأول : أن يكون المراد بيان كون الكفار بالنسبة إلى سماعهم كلام النبي والوحي النازل عليه دون حال الموتى فإن الله يسمع الموتى والنبي لا يسمع من مات وقبر ، فالموتى سامعون من الله والكفار كالموتى لا يسمعون من النبي ، والثاني : أن يكون المراد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم فإنه لما بين له أنه لا ينفعهم ولا يسمعهم قال له هؤلاء لا يسمعون إلا الله ، فإنه يسمع من يشاء ولو كان صخرة صماء ، وأما أنت فلا تسمع من في القبور ، فما عليك من حسابهم من شيء . " ¹⁴⁶

لذا فلا شيء يعزب عن قدرته ، ولا شيء يخرج عن إرادته سبحانه وهذا من تمام العقيدة والله أعلى وأعلم . وتفسير ابن كثير للآية السابقة يدل على أفضلية النبي — صلى الله عليه وسلم — وأنه أفضل الأنبياء والمرسلين .

⁽²⁾ مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية اختصره ، ورتبه ، وبوبه بدر الدين محمد بن علي الحنبلي ، راجعه ، وحقق نصرويه الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر سابقاً ، دار الجبل بيروت — لبنان ص 234 .

⁽³⁾ سورة فاطر الآية (22) .

⁽¹⁾ تفسير الرازي ج 26 / 18 .

ثالثاً : تفسير قوله تعالى : " مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا " 147

قال في تفسير هذه الآية : " يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأنه من أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا ؛ لأنه ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

وروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني

فقد عصى الله ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني". 148 لم يقل ابن كثير في تفسير هذه الآية أكثر من هذا ، وإن في إقران طاعة الله بطاعة نبيه تعظيم وتشريف للنبي — صلى الله عليه وسلم — وهو دال على أفضلية النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه أفضل الأنبياء والمرسلين . ولقد تصفحت كثيراً من التفسير فلم أجد كلاماً يزيد على ما قاله ابن كثير إلا أن طاعة النبي في أصلها طاعة لله ؛ لأنه يأمر بأمر الله ، وينهى بنهي الله 149 وقال الشوكاني في فتح القدير : " فيه أن طاعة الرسول طاعة لله وفي هذا من النداء بشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلو شأنه وارتفاع مرتبته ما لا يقدر قدره ولا يبلغ مداه ووجهه أن الرسول لا يأمر إلا بما أمر الله به ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه 150 .

رابعاً : تفسير قوله تعالى : " وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ " 151

قال في تفسير هذه الآية : " قال ابن عباس: إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داموا بين أظهرهم: فأمان قبضه الله إليه، وأمان بقي فيكم، قوله: " وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ " 152

(2) سورة النساء الآية (80) .

(3) تفسير ابن كثير ج 1 / 529 والحديث منقح عليه أخرجه البخاري في صحيحه ج 2 / 242 في كتاب الجهاد والسير باب يقتل من وراء الإمام ويتلقى به ومسلم في صحيحه بشرح النووي ج 12 / 531 في كتاب الإمارة باب وجوب طاعة الأمراء في غير مصيبة .

(4) انظر تفسير الرازي ج 10 / 198 ، 199 ، وتفسير القرطبي ج 6 / 473 ، وتفسير الزمخشري ج 2 / 114 .

(5) تفسير فتح القدير للشوكاني ج 1 / 732 .

(6) سورة الأنفال الآية (33) .

يستدل ابن كثير بكلام ابن عباس حبر الأمة بأن الله لا يعذب المسلمين المؤمنين ، طالما أن النبي بين أظهرهم ، وهذا بخلاف الأمم السابقة التي عذبت بألوان كثيرة من العذاب جراء معصيتهم لله وأنبياءهم بين ظهرانيهم . وهذا ما يفيد لفظ الآية ، ولكن الآية تحمل في طياتها معان كثيرة منها :

— أن النبي وهو موجود بين المسلمين فلن تعذب أمته مثل الأمم السابقة ، ولن تهلك كما هلكت الأمم السابقة .

— أن الله لن يعذب المشركين أنفسهم كما عذب كفار الأمم السابقة ؛ وذلك لفضل النبي بينهم ، وأنه خرج من بين أظهرهم فلماذا تنزلت رحمة الله عليهم فلا يهلكهم في الدنيا بالعذاب ، وإنما يعذبهم في الآخرة على كفرهم .

— ولو انتهى معنى الآية في فضل النبي بهذه الصورة لكان كفار قريش أوفر حظا من أحبب النبي وإخوانه ، الذي قال عنهم : " وددت أني لقيت إخواني فقال أصحابه : أو ليس نحن إخوانك ؟ قال : أنتم أصحابي ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني " ¹⁵³ ورواية أحبابي . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - متى ألقى أصحابي متى ألقى أحبابي ، فقال بعض الصحابة : أو ليس نحن أحبائك قال : أنتم أصحابي ، ولكن أحبابي قوم لم يروني وآمنوا بي أنا إليهم بالاشواق " ¹⁵⁴ لذا فلا بد أن يمتد نفع الأمة بالنبي إلى قيام الساعة ، كما يمتد إيمان الأمة به إلى قيام الساعة ؛ وتأسيسا على هذا الحديث فإنه كما انتفع الصحابة بالنبي بعدم تعذيبهم ، وانتفع المشركون كذلك ، وانتفع كل مستغفر بالاستغفار بعد التوبة ،

تنتفع الأمة كلها إلى قيام الساعة بالنبي طالما وجد فيهم الإيمان به — صلوات الله وسلامه عليه — ؛ لأن النبي فينا بسنته ، وفينا بتوجيهاته ، وأفعاله ، وتقريراته فكل من اتبع النبي ونهج نهجه ، وسار على سنته ، وآمن بالله وبنبوته ورسالته فالنبي يحبه كما ذكر في الحديث السابق ، ولن يعذبه الله لحب النبي إياه وهذا دال على أفضلية النبي — صلى الله عليه وسلم — .

¹ تفسير ابن كثير ج2/ 305 .

² الحديث حسن حسنه محقق مسند أحمد (نسخة الرسالة) أخرجه أحمد في مسنده ج20 / 39 . وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ج6/ 904 : 907 .

³ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لعلاء الدين علي بن حزام الدين المتقي الهندي ج14 / 51 ، 52 . لم يستدل على حكم الحديث .

خامسا : تفسير قوله تعالى : " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ " ¹⁵⁵

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : " وقوله تعالى : " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ " : يخبر تعالى أن الله جعل محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، أي: أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة، سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردّها وجحدّها خسر في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ الْفَرَارَ " ¹⁵⁶، وقال الله تعالى في صفة القرآن: " قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ " ¹⁵⁷.

وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين، قال: "إني لم أبعث لعناً، وإنما بعثت رحمة". ¹⁵⁸ انفرد بإخراجه مسلم .

وفي الحديث الآخر: "إنما أنا رحمة مهداة" ¹⁵⁹ فإن قيل: فأَيَ رحمة حصلت لمن كفر به؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير ، عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس في قوله: " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ " قال: من آمن بالله واليوم الآخر، كُتِبَ له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عُوِيَ مما أصاب الأمم من الخسف والقذف . ¹⁶⁰

⁽⁴⁾ سورة الأَنْبِيَاء الآية (107) .

⁽¹⁾ سورة إبراهيم الأيتان (28 ، 29) .

⁽²⁾ سورة فصلت من الآية (44) .

⁽³⁾ الحديث صحيح أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي كتاب البر والصلة والآداب باب التَّهْنِي عَنْ لَغْوِ الدُّوَابِّ وَغَيْرِهَا. ج 16 / 114 .

⁽⁴⁾ أخرجه الحاكم في مستدركه ج 1 / 35 ، بسنده قال : " حدثنا أبو بكر محمد بن جعفر المزني ثنا إبراهيم بن أبي طالب و محمد بن إسحاق بن خزيمة قالا : ثنا أبو الخطاب زياد بن يحيى الحسني و ثنا أبو الفضل محمد بن إبراهيم ثنا الحسين بن محمد بن زياد و إبراهيم بن أبي طالب قالا : ثنا زياد بن يحيى الحسني أنبا مالك بن سعيد ثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة " وقال : هذا حديث صحيح على شرطهما فقد احتجا جميعا بمالك بن سعيد و انفرد من الثقات مقبول .

وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ، وقال : حسن وقد يصل لدرجة الصحة ج 1 / 882 : 885 .

⁽⁵⁾ تفسير ابن كثير ج 3 / 201 .

وهكذا يقرر ابن كثير أن لإرسال النبي رحمة لجميع الخلق فمن آمن سعد في الدنيا والآخرة ، ونال رحمة الله التي كتبها للخلق من خلال النبي الخاتم — صلى الله عليه وسلم — ومن لم يؤمن به نال الرحمة التي أرسل بها محمد — صلى الله عليه وسلم بأن يعاقب مما أصاب الأمم السابقة من العذاب المهلك . إرسال النبي رحمة للعالمين يدل على أن رحمته لم تنل البشر فقط بل نالت رحمته كل المخلوقات والكائنات بلا استثناء ، فالنبي وصى في شرعه بالرفق بكل مخلوقات الله سبحانه . بل إنه — صلى الله عليه وسلم — جاء رحمة للملائكة ؛ لأنهم من العالمين المشار إليهم في الآية وروي " عن ابن عباس قال : كان محمد صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع الناس فمن آمن به وصدق به سعد ، ومن لم يؤمن به سلم مما لحق الأمم من الخسف والغرق. " ¹⁶¹ وهذه الآية لا تدل على أن النبي أفضل الأنبياء فحسب بل فيها دلالة أيضا على أنه هو أفضل الأنبياء وأفضل من الملائكة . وهذا ما ذكره ابن تيمية من أقوال السلف كما سبق ، ووافقه الأشعرية على ذلك فيما ذكره مفسروهم ، ولقد ذكر الزمخشري المعتزلي أفضلية النبي — صلى الله عليه وسلم — في تفسيره لآية أخرى غير هذه سبق ذكرها في هذا البحث ¹⁶².

سلامنا : تفسير قوله تعالى : " وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ " ¹⁶³

قال في تفسير هذه الآية : " وقوله : " وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ " قال مجاهد : لا أذكرُ إلا ذُكِرَتْ معي : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . وقال قتادة : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله. " ¹⁶⁴

وقال أيضا : " وقال آخرون : رفع الله ذكره في الأولين والآخرين ، ونوه به ، حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به ، وأن يأمرُوا أممهم بالإيمان به ، ثم شهر ذكره في أمته فلا يُذكر الله إلا ذكر معه. " ¹⁶⁵

⁶ (تفسير القرطبي ج 14 / 302 .

⁷ (قطر تفسير الكشاف للزمخشري ج 1 / 477 ، 478 . ونظر ص 7 ، 8 من هذه الدراسة .

(1) سورة الشرح الآيات (4) .

(2) تفسير ابن كثير ج 4 / 524 .

(3) تفسير ابن كثير ج 4 / 525 .

وإن هذا التفسير يدل دلالة قاطعة على أفضلية النبي — صلى الله عليه وسلم ، وأنه أفضل الأنبياء والمرسلين ؛ لأن الله ذكر اسمه مع اسمه في الآذان والصلاة أيضا في قراءة التشهد الأخير ، وهذا على الرأي الأول . وعلى الرأي الثاني فأخذ الله الميثاق من النبيين على اتباعه والإيمان به دليلا على تفضله عليهم من قبل الله تعالى . وبهذا يظهر بيان ابن كثير لأفضلية النبي صلى الله عليه وسلم وتفضيله على سائر الأنبياء والمرسلين ، وكفى النبي أن الله جعله خاتم الأنبياء والمرسلين في هذا دليل على أفضليته ، وكفى النبي أن جعل الله شرعه هو الباقي إلى يوم القيامة لا ينسخ بدعوة غيره من الرسل ، بل يتبعه في شرعه كل أصحاب الأديان السابقة عليه — صلى الله عليه وسلم — وكل هذا أيضا يدل على أنه أفضل الأنبياء والمرسلين .

المطلب الثالث : بيان ابن كثير أن رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين .

جاء بيان كون النبي خاتم الأنبياء والمرسلين في تفسيره لآية واحدة هي :

قوله تعالى : " وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا " ¹⁶⁶

وقوله : " وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا " كقوله : " اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ " ¹⁶⁷ فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى والأخرى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي، ولا ينعكس. وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث جماعة من الصحابة.

روى الإمام أحمد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنیان ويعجبون منه، ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة؟ فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة". ¹⁶⁸

⁽⁴⁾ سورة الأحزاب من الآية (40) .

⁽⁵⁾ سورة الأنعام من الآية (124) .

⁽¹⁾ الحديث صحيح أخرجه أحمد في مسنده ج35 / 167 ، 168 ، بسنده ولفظه وهو صحيح لغیره نظر ج35/ 168 لمسند أحمد نسخة الرسالة ، وأخرجه البخاري ج2 / 391 كتاب المناقب باب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة بلفظ : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن مثلي مثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين " وأخرجه مسلم

...حديث آخر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي". قال: فسَقَ ذلك على الناس قال: قال: ولكن المبشرات". قالوا: يا رسول الله، وما المبشرات؟ قال: "رؤيا الرجل المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة".¹⁶⁹

.... والأحاديث في هذا كثيرة، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد، صلوات الله وسلامه عليه، إليهم، ثم من تشریفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له. وقد أخبر تعالى في كتابه، ورسوله في السنة المتواترة عنه: أنه لا نبي بعده؛ ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده

فهو كذاب أفك، دجال ضال مضل، ولو تخرق وشعبذ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرجيات¹⁷⁰، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب، كما أجرى الله، سبحانه وتعالى، على يد الأسود العنسي باليمن، ومسيلمة الكذاب باليمامة، من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة، ما علم كل ذي لب وفهم وحجة أنهما كاذبان ضالان، لعنهما الله. وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يخنموا بالمسيح الدجال، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها. وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرؤن بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره، ويكون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: "هَلْ أَتَبَّكُمْ عَلَى مَنْ تَنْزِلُ الشَّيَاطِينُ * تَنْزِلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ"¹⁷¹. وهذا بخلاف الأنبياء، عليهم السلام، فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويقولونه ويأمرؤن به وينهون عنه، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات، والأدلة الواضحات والبراهين الباهرات، فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمرا ما دامت الأرض والسموات.¹⁷² لقد بين ابن كثير أن النبي — صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين ودلل على ذلك

في صحيحه بشرح النووي ج 15 / 425 في كتاب الفضائل باب ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين بلطف قريب من لفظ البخاري .

² أخرجه أحمد في مسنده من هذا الوجه ج 21 / 326 ، 327 . قال شعيب الأرنؤوط ومن حقق النسخة معه : إسناده صحيح على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير المختار بن قلال فمن رجال مسلم .

³ (النيرجيات مفرداً النيرج وهي : أخذ تشبه السحر وليست بحقيقته ولا كالسحر إنما هو تشبيه وتلبس . فطر لسان العرب لابن منظور باب نرج باب الجيم فصل النون وما ثالثهما الراء ج 6 / 4392 .

⁴ سورة الشعراء الأيتان (221 ، 222) .

⁵ تفسير ابن كثير ج 3 / 493 ، 494 .

بما ورد من صحيح قول المصطفى — صلى الله عليه وسلم — والأمر في ذلك واضح لا يحتاج إلى برهان ، ولا ينكره أحد من المسلمين .

الخاتمة

إن فضل النبي — صلى الله عليه وسلم عظيم . فهو النبي الخاتم الذي لا نبي بعده ، وهو أفضل الأنبياء والمرسلين . ولقد أعطى الله تعالى النبي عطايا كثيرة . منها أن الله عز وجل نقي نسبه صلى الله عليه وسلم فجاء من الأظهار الأبرار حيث يقول رب العزة "وَتَقْلِبُكَ فِي السَّاجِدِينَ"¹⁷³ يروي ابن كثير في تفسيره لهذه الآية عن ابن عباس أنه قال : " يعني قلبه من صلب نبي إلى صلب نبي، حتى أخرجه نبيا."¹⁷⁴ ولو تطرقنا لفضائل النبي فلن ننتهي من خاتمة هذا البحث الضيق . ولذلك جاء ذلك البحث لكي يركز على أفضلية النبي بالنسبة لباقي الأنبياء فانهصر مجال البحث بين النبي وغيره من الأنبياء .

وقد توصلت الدراسة للنتائج الآتية :

1 — محمد صلى الله عليه وسلم أفضل خلق الله على الإطلاق وليس أفضل النبيين وخاتمهم فحسب .

2— اتفق علماء الأمة على كون النبي أفضل الأنبياء والمرسلين وخاتمهم .

3 — من فضل النبي الانتفاع به في حياته وبعد مماته فهو يستغفر للمؤمنين به في قبره وتلك من خصوصياته — صلى الله عليه وسلم .

وفي نهاية البحث أوصي الباحثين والدارسين بربط مسائل العقيدة بالتفسير لبحث هذه المسائل من كتب التفسير والتوصل لأراء المفسرين في هذه القضايا ومقارنة آراء المفسرين للوصول إلى الآراء الصحيحة في المسائل العقائدية المختلفة .

⁽¹⁾ سورة الشعراء الآية (219)

⁽²⁾ تفسير ابن كثير ج

قائمة المصادر والمراجع

1 - القرآن الكريم

كتب التفسير :

2 - ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، طبعة دار المنار .

3 - الرازي ، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1 / 1401هـ ، 1981م .

4 - الزمخشري ، الكشاف عن حقائق غوامض وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، الشيخ علي محمد معوض ، مكتبة المبيكان - الرياض ط1 / 1418 هـ ، 1998م .

5 - القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، ط1 / 1427 هـ ، 2006م .

6 - محمد بن علي الشوكاني ، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، حققه وخرج أحاديثه وفهرسها سيد إبراهيم ، دار الحديث ، القاهرة ، الطبعة الثالثة 1418 هـ - 1997 .

كتب الحديث :

7 - أحمد بن حنبل ، المسند ، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه : شعيب الأرناؤوط ، عادل مرشد ، مؤسسة الرسالة ، ط1 / 1416 هـ ، 1995م .

8 - الحاكم النيسابوري ، المستدرک على الصحيحين ، دار المعرفة بيروت لبنان .

9 - علاء الدين علي بن حسام الدين ، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، مؤسسة الرسالة ، ط5 / 1405 هـ ، 1985م .

10 - محمد بن إسماعيل البخاري ، صحيح البخاري ، دار المنار 1422 - 2001م .

11 - محمد ناصر الدين الألباني ، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط1 / 1415 هـ ، 1995م .

12- محي الدين أبو زكريا النووي ، صحيح مسلم بشرح النووي ، تحقيق صلاح عويضة ، دار الفكر العربي .

الموسوعات ، وكتب التراجم ، والمعاجم :

13 - ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، اعتنى به وخرج أحاديثه : عامر الجزار ، أنور الباز ، دار الملل والنحل لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي ت (429 هـ) حققه وعلق عليه د/ ألبير نصري نادر دار المشرق بيروت لبنان ط 1986 م .

14 - ابن تيمية ، مختصر الفتاوى المصرية اختصره ، ورتبه ، ويوبه بدر الدين محمد بن علي الحنبلي ، راجعه ، وحقق نصوصه الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر سابقا ، دار الجيل بيروت - لبنان .

15 - ابن حجر الصقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، دار الجيل بيروت لبنان ط 1414 / 1 هـ 1993 م .

16 - ابن فرحون المالكي ، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، تحقيق د/ محمد الأحمدى أبو النور ، دار التراث للطبع والنشر .

17 - ابن منظور ، لسان العرب ، طبعة دار المعارف .

18 - تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمود محمد الطناحي ، عبد الفتاح محمد الحاد ، دار إحياء الكتب العربية ،

19- جلال الدين السيوطي ، طبقات الحفاظ ، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة وهبة .

20 - خير الدين الزركلي ، الأعلام (قاموس تراجم) ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ط 1986 / 7 م .

21 - السخاوي ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت - لبنان .

- 22 - شمس الدين بن خلكان ، وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق د. حسان عباس ، دار الثقافة بيروت - لبنان .
- 23 - شمس الدين محمد الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط1 / 1413هـ - 1992م .
- 24 - شمس الدين محمد الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، أشرف على تحقيق الكتاب وخرج أحاديثه شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ط9 / 1413 هـ - 1993م .
- 25 - شمس الدين محمد الذهبي ، العبر في خبر من غير ، حققه وطبعه أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان .
- 26 - شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن حجر العسقلاني ، تهذيب التهذيب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان ، ط2 / 1413هـ ، 1993م .
- 27 - محمد أبو زهرة ، خاتم النبیین - صلى الله عليه وسلم - عني بالطبعة ، عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، طبع على نفقة أمير دولة قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني ، الدوحة ، 1400 هـ .

.....

